الروح الدينية الجديدة

« النصرانية »

مقال من كتاب تاريخ التربية قبل الاسلام لحضرة صاحب العزة الاستاذ الجليل والمربى الكبير احمد بك فهمى القطان ناظر مدرسة المعلمين الثانوية

كانت هذه الديانة بفضل مبادئها عاملا قويا فى التربية الخلقية وواسطة فى المساواة بين الأفراد فضلا عن كونها جعلت أعمال كل امرىء راجعة الى الخالق سبحانه وتعالى فهو الذى يكافئه على حسناته ويعاقبه على سيئاته .

والمسيحية علمت الناس وقتئذ أن الانسان غير تابع لحكومته الا فى جسمه وأعماله المادية فله أن يضحى بجسمه فى سبيل خدمة وطنه إن أراد لكن روحه لا تضحى من أجل أى شىء دنيوى إذ أنها ملك لخالقها عز وجل .

ولذلك لم تقتصر التربية المسيحية على إعداد الأفراد لخدمة الحكومة فقط بل هذبت أخلاقهم لتضمن لهم الحياة الآخرة

ولقد تعلم الناس من هذه الديانة أن مقرهم واحد فى الآخرة وأنهم جميعا عند المولى سبحانه وتعالى سواء ولذلك شعر الفقراء والمساكين

برقٍ أدبي فى حالهم وأنهم ربما نالوا الجزاء الحسن فى السماء إن فاتهم الثروة فى الأرض

وفضلا عن المساواة بثت المسيحية فى صدورهم روح الحرية وأن أرواحهم لايملكها آدمى . وهاهى هذه أخبار الشهداء فى رومة والاسكندرية وغيرهما من أمهات المدائن تشهد بأن المسيحيين الأول فضلوا العذاب والموت والحياة فى سراديب تحت الأرض على أن تمس حريتهم وعقيدتهم بشىء

نقص القرون المسيحية الاولى فى التربية

كل الحكم العالية والمبادىء السامية التى حوتها الديانة المسيحية لم تثمر فى أول نشأتها لأسباب كثيرة أهمها مايأتى :

١ — كون المسيحيين الاول كانوا فى درجة التوحش تقريبا فلم يتمكنوا من الرقى الأدبى والعقلى . ولذا كان تأثيرهم فى الأمم المتمدينة القديمة كتأثير خشب أخضر وضع فى وسط اللهب لايظهر له فى الأول إلا دخان كثيف

٢ — كون القرون الأولى زمن دفاع المسيحيين عن أنفسهم وعن الدين الذى تمسكوا به وبذا ما كان لهم الوقت للبحث فى فن التربية . ولحاربتهم وكثرة جدالهم الأممَ الوثنية القديمة احتقروا آدابهم باحتقارهم دياناتهم ولم يميزوا العلوم والفنون القديمة والفلسفة شيئا من التفاتهم بل كان جل اهتمامهم القضاء على معتقدات تلك الأمم .

٣ — مركز المسيحين الأول بين الناس كان حرجاً لدرجة أنهم اضطروا الى الالتجاء الى الصحارى والأماكن البعيدة عن العيون حيث تعودوا الزهد والتقشف وظنوهما غاية الكمال فى التربية

٤ — خروج المسيحيين الأول من دائرة الانسان وحاجاته ودخولهم الدائرة المقدسة دائرة المولى عزشأنه ولما رأوا أن الدنيا كلها فساد ورذيلة هجروا كل شيء دنيوى وظنوا أن واسطة التقرب من الله سبحانه وتعالى هى حرمان أنفسهم من كل مايمكن العيش بدونه وبتجنب كل المسرات والملاذ حتى يقاوموا بذلك أعمال الوثنيين من يونان ورومان

فلكل هذه الأسباب كان المسيحى يجهز نفسه للموت لا للحياة حتى صارت الكنيسة صاحبة السلطان القائمة بأمر التربية . فالنصرانية تصرح باختلاف الخلق والاستعداد ووجوب العمل فى الدنيا بمقتضى ذلك الاختلاف لكن الكنيسة أماتت تلك الحكمة الباهرة وعاملت الجميع كما لو كانوا فى الاستعداد سواء

آباء الكنيسة

من الرجال الذين شدوا أزر الدين فى المبدأ وجعلوا له شأناً عظيما أناس غيورون عليه كانوا يعدون الفلسفة خطيئة وحب آداب اللغات القديمة كفراً . لكن البعض منهم صرح بامكان وجود الشعور الدينى حب آداب اللغات فى قلب واحد . فرفض ترتوليان (Turtulilan)

(من سنة ١٦٠ ـ سنة ٢٤٠ م) كل التربية القديمة لظنه أنها تبعد الانسان عن خالقه وسان أوغسطين (Saint Augustine) (من سنة ٣٥٤ الى سنة ٤٣٠) الذى كان فى صغره مولعاً بالشعر القديم والفلسفة رفض كل تلك الميول بعد تنصره قائلا « للجهلاء مملكة السماء » وأثر فى مجلس قرطاجة حتى حرم على القسيسين قراءة مؤلفات الوثنيين .

لكن رأى سان بازيل (Saint Bazil) كان مخالفاً ذلك حيث قرر على المسيحى الصغير وجوب الاطلاع والعلم بخطباء وشعراء ومؤرخى الزمن القديم . فهو الذى قال إن شعر هوميروس يغرس حب الفضيلة فى القلوب وإنه يجب استخدام فلسفة القدماء وحكمتهم فى تربية الأبناء ووافقه على هذا الرأى تقريباً سان جيروم (Saint Jerome) (من سنة ٣٤٠ ـ سنة ٢٤٠ م) حيث قال إن ميله الى الخطابة وإلى طريقة سيسيرو لم يضعف تنصره .

سان جيروم وتربية البنات

حرر سان جيروم رسائل شتى الى أناس مختلفين خاصة بتربية البنات أهمها رسالة كتبها (سنة ٤٠٣م) الى ليتا (Laeta) يبين لها كيف يجب أن تربى ابنتها باولا (Paula) . وكانت رسالته هذه أحسن نوعها فى صدر النصرانية فكان لها وقع عظيم فى النفوس ولذلك حفظها إراسموس (Erasmus) عن ظهر قلب . لكننا اليوم مع تبجيلنا وتعظيمنا لبعض الشىء منها لا يسعنا الا رفض الروح الأساسية المنبثة فى كل تلك الرسائل

لأنها تترجم عن فكر ضيق لا يأمن الدنيا يعد التخريف تدينا ويحتقر كل الأعمال الدنيوية

الزهد الجسماني

ضاع الغرض اليوناني الخاص باعطاء الجسم كل مايمكن من الجمال والكمال وخلفه احتقار لا مزيد عليه فكان ينظر اليه كأنه عدو يجب أن يقهر بالصوم والحرمان من كل لذيذ. فلقد جاء فى رسالة سان جيروم الى ليتا ما تعريبه : « لا تأذنى لابنتك باولا (Paula) أن تتناول طعاماً فى الحفلات المنزلية لئلا تشتهى اللحوم التى تقدم على المائدة ولا تدعيها تتناول الخمور لأنها أصل لكل رذيلة . وليكن غذاؤها الخضر ولا تأكل السمك إلا قليلا . ولا تعطيها الغذاء الكافى لتكون دائماً جائعة »

ولقد تغالى فى احتقار الجسم حتى كاد يحرم عليه النظافة إذ قال « أما أنا فأحرم بتة على كل بنت صغيرة أن تستحم »

الزهد النفسانى والادبى

كانت المادة الوحيدة للدراسة هى الأنجيل ورفضت كل العلوم والفنون الجميلة القديمة . ولقد قال سان جيروم فى هذا الغرض « لا تأذنى لباولا بسماع آلات الطرب ودعيها تجهل فوائد الناى والبربط »

ترى من عباراته هذه أنه وافق اليونانيين فى عدم ميله الى الناى. ولكننا لا يمكننا تفسير تحريمه للبربط وغيره من الآلات الموسيقية

إلا بكونه كان يرى أن ذلك ينعش النفوس ويدخل السرور على الانسان وهو يحرم كل تمتع فى الدنيا . والأغرب من هـذا أنه حرم الربط مع علمه أن سيدنا داود عليه السلام كان يوقع عليه وهو ينشد مزاميره الشهيرة . فما أعظم البون بينـه وبين أئمة التربية الذين عاشوا فى القرن التاسع عشر أوأوائل العشرين الذين قالوا إن التربية الحقة هى ماتمدنا لان نعيش عيشة كاملة من كل الوجوه وتضمن لنا تنمية قوانا المختلفة وميولنا المتعددة مع حفظ التوازن بينها !

ولقد تغالى سان جيروم هنا أيضاً حيث حرم المشى إذ قال « لا تأذنى لباولا أن تمشى فى الطريق أو تجتمع مع أقاربها أو قريباتها بل اجعليها دائماً فى منزل »

وكانت آراء ذلك القس تقصد التربية فى الاديار حيث لا حرية ضمير ولا حياة دنيوية . وأفظع من هذا كله أنه لم يقتصر على تحريم الفنون والعلوم والآداب والملاذ والملاهى المباحة شرعاً بل تعداها وأراد الحجر على القلب وميوله فقال إن القلب دنيوى وكل شىء دنيوى مملوء بالرذيلة ومحفوف بالاخطار ولذلك قال فى رسالته المشهورة « لا تجعلى باولا تميل الى إحدى صديقاتها أكثر من ميلها الى الاخريات ولا تأذنى لها بمخاطبتها همساً » وختم عبارته هذه بقوله « دعيها تربى فى دير حيث لا ترى شيئاً من الدنيا فتعيش كالملك الطاهر لها جسم لكنها لا تشعر بوجوده فتخففين عن نفسك عناء مراقبتها .... واذا أرسلت باولا الينا تكفلت بها وكنت لها معلما واعتنيت بها العناية التامة . وان تمنعى

شيخوختي من حل عقدة لسانها وبذلك أصير أشهر من الفيلسوف أرسطوطاليس لاني ان أعلم ملكا قابلا للموت بل سأربي ملكا طاهراً يحيا الى الابد »

حقائق ثابتة

بصرف النظر عن المبالغات السابقة فان لسان جيروم آراء صائبة في التدريس العملي وطرق تعليم المطالعة وبث روح المسابقة اذ قال . « أعطي باولا حروفاً من الخشب أو العاج وعلميها أسماءها وبذلك تتعلم وهي تلعب . لكن لا يكفي استظهارها تلك الحروف بالترتيب بل يجب خلطها ووضع الحرف الاخير أولا أحيانا والاول في وسط حروف التهجي وهكذا . وشجعيها على تركيب الكلمات باعطائها الجوائز أو بمدحها أمام رفيقاتها ولا توبخيها اذا وجدت التعليم صعباً بل عليك أن تساعديها بالمدح والاطراء حتى تشعر بلذة النجاح في العمل وألم الخيبة واحذري أن يوجد بنفسها كراهة للتعليم عند الابتداء خوفاً من أن تلازمها وهي كبيرة السن »

ولقد نحا لسان جيروم نحو كونتليان في تعليم الكتابة اذ اقترح حفر الحروف في ألواح من الخشب يمر عليها التلميذ بقلمه .

انحطاط التربية في العصور المسيحية الاولى

لما كثر انتشار المسيحية في رومه ازدادت سلطة الاساقفة

الرومانيين وضعف تأثير الفلسفة اليونانية أو بعبارة أخرى أخذت الديانة تحل محل العلم فلم يدرس الافراد الطبيعة بل اقتصروا على الاعتقاد فيما هو فوق الطبيعة فسبب كل ذلك انحطاط العلم والفنون شيئاً فشيئاً الى أن ماتت فعلا وتركت الجو خاليا للعقائد الدينية . ومن المعلوم أن التدين من غير علم أو فهم ينقل الانسان من حال الدين الصحيح الى الاعتقاد فى الخرافات والبدع

ولقد بينا فيما مضى آراء كبار رجال الكنيسة فى التربية وكيف أنها كانت تومىء الى الحط من قدر التعليم . وهنا أنبىء بأنه لم يأت القرن الخامس الا ولم يبق للتربية الصحيحة أثر يذكر . فالقوانين التى وضعها سان بندكت (St. Bendict) (من سنة ٤٨٠ الى سنة ٥٤٣ م) . كتبت بلغة لاتينية ساقطة جداً مع أن سان بندكت هذا من أصل رومانى شريف ولقد وبخ جريجورى الاكبر المتوفى سنة ٦٠٤ م . (Gregory) أحد الاساقفة لانه كان يلقى درساً فى قواعد اللغة مدعياً أن الديانة مستقلة عن القواعد وقال له « ياأخى لقد اعترتنى الدهشة ولحقت بى الآلام الشديدة عند ما بلغنى أنك تعلم بعض الافراد قواعد اللغة . فاعلم إذن أنه من العار أن يشتغل أسقف بشىء (القواعد) يتنصل منه أسافل الناس »

ولقد أظهر بعض المسيحيين الاول ميلا الى التربية الوثنية وذلك لانهم تربوا على مبادئها قبل اعتناقهم الديانة المسيحية . لكن عندما أقفلت تلك المدارس لم تفتتح النصرانية خلافها حتى أنه بعد القرن الرابع للميلاد

عمت الجهالة كل الممالك وبذا ذهب تعب اليونان والرومان أدراج الرياح وكأنها لم تكن وابتدأ العالم الانسانى حياة جديدة . ففى القرن الخامس لم تتعلم الصغار ولم يوجد لدى المدرسين تلاميذ

غير أن المسيحية لم تتمكن من البقاء بدون تربية مهما كانت قليلة . ولذا قام بعض الأفراد من وقت الى آخر بنهضات ضعيفة كى يعيدوا الى العلوم القديمة شيئاً من مجدها . وكان هؤلاء الافراد من الذين تعلموا بمدارس القواعد ومدارس البلاغة الوثنية قبل اعتناقهم النصرانية وأشهرهم مارتيانوس كابلا (Martianus Capella) وهو أستاذ بلاغة إفريقى الاصل وكان معاصرا لاوغسطين (Augustine) أى فى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس . فانه كتب دائرة معارف تحوى مواد تربية ذلك العصر وكانت الكتاب الوحيد الذى يعتمد عليه فى التدريس مدة قرون ومنه أخذ منهج الدراسة فى القرون الوسطى المسمى «الفنون العقلية السبعة» وإن سرعة انتشار هذا الكتاب الساقط لدليل على انحطاط التربية بعد القرن الخامس ولقد فرض سان بندكت « St Banedict » على جميع رهبانه أن يطالعوا قليلا أثناء النهار

ولم يفلح ذلك كله بعد الجهد وازدادت سحب الجهل وعظمت الظلمات فوق أطلال المدنية الرومانية والامبراطورية الشاسعة وأصبحت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية مسيطرة فى واد كله ظلام حالك .

ووصل الجهل المطبق آخر درجاته فى القرن الثامن فهاجر العلم من قارة أوربا ووجد لنفسه ملجأين أحدهما فى الغرب في الجزائر البريطانية خصوصا أرلندة. والثانى فى الشرق أى فى سوريا . وبلاد المسلمين. بينما كان المسيحيون بأوربا يحاربون العلوم والفنون اليونانية والرومانية.

احمد فوزي القطان

الخلق

لحضرة الكاتب الكبير ، والاستاذ الجليل صاحب التوقيع

أتدرى ماهو الخُلُق عندى ؟

هو شعور المرء ، بأنه مسئول أمام ضميره ، عما يجب أن يفعل لذلك لاأسمى الكريم كريما ، حتى تستوى عنده ، صَدَقَةُ السر وصَدَقَةُ العلانية ، ولا الرحيم رحيما ، حتى يبكى قلبه ، قبل أن تبكى عيناه ، ولا العفيف عفيفا ، حتى يعف فى حالة الأمن ، كما يعف فى حالة الخوف ، ولا العادل عادلا ، حتى يقضى على نفسه ، قضاءه على غيره ، ولا الصادق صادقا ، حتى يصدق فى أفعاله ، صدقه في أقواله ، ولا المتواضع متواضعا ، حتى يكون رأيه فى نفسه ، أقل من رأى الناس فيه .

التخلق غير الخلق . وأكثر الذين نسميهم فاضلين متخلقون بخلق الفضيلة لافاضلون . لأنهم إنما يلبسون ثوبها مصانعة للناس أو خوفا منهم أو طمعا فيهم. فان ارتقوا عن ذلك قليلا لبسوه طمعا فى الجنة التى أعدها